أحمد حسن الزيات (١)

للدكتور مهدى علام

عضو مجمع اللغة العربية

من أراد أن يتحدث عن المرحوم أحمد حسن الزيات ، حديث رثاء وتأبين فليسلك مسلكه فيما فعل يوم وقف فى العام الماضى يؤبن زميلا عزيزاً هو المرحوم محمد فريد أبو حديد . ولكن المتحدث إليكم اليوم لا يسمو إلى منزلة الزيات ، فلا يستطيع أن ينصفه بمثل ما أنصف به أبا حديد .

على أن الثروة الأدبية التى خلفها الأستاذ الزيات ، إن أعجزت متحدثاً فى مثل هذا الحفل أن يلم بها ، فإنها مع ذلك تيسر له أن يأخذ من أطرافها ما يصون بيانه عن التقصير الكامل .

وما فكرت فى عبارة أريد أن أقولها فى فقيدنا إلا وجدت له خيراً منها فى التعبير عما أريد أن أقوله . فقد كان له فى كل ميدان من ميادين الأدب جولات . وإذا كان قد قطع على كثير من الكتاب سبيل الابتكار فى التعبير ، فإنه قد يسر لهم مع ذلك سبيل الاقتباس من فيض أدبه . ومثله فى ذلك مثل من استصلح واسترزع القفار ، فخلفه لمن بعده رياضاً يانعة ، وبساتين مثمرة .

يقول الزيات : « رجلان يربكان الكاتب إذا حاول أن يكتب عنهما : رجل لا يستطيع أن يجد مايقوله فيه ، ورجل لا يستطيع أن يختصر مايعرفه عنه » .

---

(١) ألقيت هذه الدراسة فى حفلة التأبين التى أقيمت فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، يوم الثلاثاء ٢٨ شعبان ١٣٨٨ - ١٩ فبراير ١٩٦٨ .

وشأنى مع الزيات شأنه مع الرجل الثانى ، فأنى لجلسة كجلستنا هذه أن تختصر — بله أن تستوعب — نواحى العظمة الأدبية التى لفقيدنا ! .

لقد حدث ، أنه فى خلال الخمسة عشر عاماً الماضية ، أصيب الأدب العربى بخسارتين فادحتين : كانت أولاهما احتجاب « الرسالة » ، وكانت الثانية احتجاب « الزيات » . وحين احتجبت « الرسالة » كان عزاؤنا بقاء صاحبها بيننا يواصل نشاطه الأدبى العظيم . واليوم وقد احتجب عنا « الزيات » نجد بعض عزائنا فى بقاء « الرسالة » سجلا أدبياً وتاريخياً معاصراً لحركاتنا الفكرية ؛ بل نجد تلاميذ « الرسالة » ، الذين خطوا خطواتهم الأدبية الأولى على صفحاتها ، وقد أصبحوا اليوم من أعلام الفكر والقلم ، يواصلون رسالة الزيات فى خدمة اللغة والفكر والأدب .

كان لهذا الفقيد العظيم فى خدمة الأدب حقبة متميزة طولها عشرون عاماً فى « الرسالة » ، وكان له فى خدمة اللغة حقبة متميزة طولها عشرون عاماً فى مجمع اللغة العربية ، وكان له فى خدمة اللغة والأدب والثقافة العربية — فى أوسع إطار لها ، وأدق تصوير لها — حقبة تبلغ خمساً وستين سنة مباركة ، ملأ فيها بضعة آلاف من الصفحات التى تضىء بأفكاره ، وتشرق بأسلوبه ، وتشع بإخلاصه .

فقد ولد أحمد حسن الزيات فى الثانى من شهر إبريل سنة ١٨٨٥ (١) فى كفر دميرة القديم بمحافظة الدقهلية . ودخل كتاب القرية وهو فى الخامسة من عمره ، وحفظ القرآن الكريم وهو فى الحادية عشرة ، ثم جوده ببعض القراءات السبع . والتحق بالأزهر قبل بلوغه الثالثة عشرة من عمره . وهنا أنقل مما كتبه هو عن نفسه إبان هذه السنوات ، بمناسبة رثائه لزميله المرحوم محمود حسن زناتى (٢) :

---

(١) أخبرنى الدكتور علاء الدين الزيات ، نجل الفقيد ، أن والده أخبره أن هناك خطأ فى تاريخ ميلاده ، وأن التاريخ الحقيق يسبق التاريخ المشهور بسنتين . ويبدو أن عدم اهتمام المرحوم الزيات بتصحيح التاريخ تصحيحاً رسمياً يرجع إلى أنه لم يكن موظفاً حكومياً ، بل نحن نعرف أنه لم يقبل ما عرض عليه من وظائف الحكومة . انظر وحى الرسالة ج ٤ ص ١١٧ .

(٢) وحى الرسالة ، ج ٣ ص ١٦٥ — ١٩٦٧ ، الطبعة الثالثة .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

« كنا ثلاثة ألفت بيننا وحدة الطبع والهوى والسن : فالطبع مرح فكه ، والهوى درس الأدب وقرض الشعر ، والسن فتية لا تجاوز السادسة عشرة . وكان طه قاعدة المثلث (يقصد الدكتور طه حسين) ، ومحمود وأنا ضلعيه القائمتين . أو كان المبرد ، صاحب الكامل ، قلب الطائر ، والزمخشرى ، صاحب الكشاف ، وثعلب ، صاحب الفصيح جناحيه الخافقين ؛ وتلك كانت ألقابنا على الترتيب ، لقب بها بعضنا بعضاً ، لنزعة فكرية أو فنية كان ينزعها كل منا فى نظر أخويه . ووجه الشبه بيننا وبين المثلث أن وجودنا كان كوجوده ، لا يتصور فى الذهن ولا فى الخارج إلا بأضلاعه الثلاث على أى شكل يكون . وأما وجه الشبه بيننا وبين الطائر فإن حياتنا كانت كحياته : تردد إلى كل روضة ، وتغريد على كل شجرة ، وتحليق فى كل جو . كنا نتنقل من حلقة العلم إلى درس الأدب ، ومن درس الأدب إلى مجلس الشعر ، ومن مجلس الشعر إلى دار الكتب ، ومن دار الكتب إلى الجامعة المصرية القديمة ، ومن الجامعة إلى إدارات الصحف نعرض عليها ما كنا نسميه يومئذ شعراً ، ثم ننتهى إلى دار أحدنا فنتدارس ما حصلنا من علم ، ونتذاكر ما حفظنا من أدب ، ونتنادر بما سمعنا أو رأينا من سخف . فاذا أخطأنا أو نسينا لجأنا إلى ذاكرة طه العجيبة ، فتعيد ما وعت ، لا تخرم منه حرفاً ، فنصحح أو نستكمل أو نستفيد ...

« كان كل منا يحب أخويه حباً غلب على كل شىء . وإذا اجتمعنا عكفنا على هوى واحد هو الأدب ، وإذا افترقنا نزعنا إلى هوى واحد هو نحن الثلاثة ... وكنا نعشق الكتب ، فلم ندع فى الأدب كتاباً مطبوعاً ولا مخطوطاً إلا قرأناه أو قلبناه . والمكتبة العربية كانت يومئذ بالنسبة إلينا (الكتبخانة المصرية) . وكان محمود أشدنا غراماً بالمكتبات والمخطوطات ، فكنا حين ننصرف ـ طه وأنا ـ لدراسة الفرنسية ، ينصرف هو إلى مكتبة الأتراك ، أو إلى مكتبة الأزهر ، أو إلى دكاكين الوراقين » .

وقد ختم ذكرياته هذه عن أحد أضلاع المثلث بتحية رقيقة قدمها لصديقه الدكتور طه إذ يقول له :

« وأحسن الله عزاءك وأطال بقاءك يا أخى طه ! لقد ذكرتنى أواخر الصبا

وأوائل الشباب ، وعهداً غفل عنا الزمان فيه ، فنعمنا بالإخاء المحض والصفاء الخالص ! ومن الذى ينسى ، أيها الأخ الكريم ، ربيعه وهو فى الخريف ، وشروقه وهو فى الغروب ؟ » .

ويشاء القدر أن يرد له أخوه هذه التحية بعد نحو عشرين عاماً ، حين افتتح هذه الدورة للمجمع فقال ينعاه : « كنا ثلاثة : أنا والزيات ومحمود زناتى ، دخلنا الأزهر معاً ، وطردنا من الأزهر معاً ، وعدنا للأزهر معاً . » رحم الله الزيات ، وأطال بقاء طه !

أما قصة الطرد من الأزهر والعودة إليه ، فقد أشار إليها الفقيد فى كتابه « فى ضوء الرسالة » حيث يقول عن المرحوم أحمد لطفى السيد : (١) .

« كان أول يوم اتصلت فيه أسبابى بالفقيد العظيم يوم زرته فى مكتبه بالجريدة ، أنا وصديقاى طه حسين ومحمود الزناتى ، نشكو إليه فصلنا من الأزهر ونحن فى السنة النهائية من الدراسة فيه ، لخلاف ثار بين الطلاب فى درس أستاذنا المرصفى حول فقرة من خطبة للحجاج ، رواها المبرد فى الكامل . وكان الخطيب الجرىء قد أساء الأدب فى حديثه عن الطواف بقبر الرسول ، فكفروه لذلك . وكنا نرى أن سوء التعبير يوجب التعذير ، ولا يوجب التكفير . فلما دخلنا عليه هش بنا ، وبش لنا ، وسمع لنا ، وسمعنا منه . ثم قال بلهجته الرزينة : إن الأمر أيسر من ذلك . ورفع سماعة التليفون وقال للشيخ حسونه النواوى ، وكان شيخ الأزهر يومئذ : إن عندى ثلاثة من طلاب الأزهر فصلتموهم لرأى رأوه ، ولعل من الخير ألا تقتلوا فى الشباب حرية الرأى ما دامت لا تخالف أصلا من أصول العقيدة ، ولا نصاً من نصوص الأحكام . وسأله أن يلغى قرار الفصل ، ففعل . »

على أن افتتاح الجامعة الأهلية كان قد اجتذب الزيات وصديقه الذى كان مقدراً له أن يكون من بناة الحياة الجامعية فى مصر ، وانصرفا إلى هذا المنهل العذب للدراسات الأدبية .

---

(١) فى ضوء الرسالة ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤ .

وعمل الزيات مدرساً للغة العربية بمدرسة الفرير بالخرنفش نحو سبع سنوات ، علم فيها العربية ، وتعلم الفرنسية ، وقد أنصف نفسه — وزميلا آخر له — بعد مدة من قيامه بعمله فى مدارس الفرير ، فكتب فى سنة ١٩٤٢ بمناسبة رثائه لزميل له فى التدريس يقول : (١)

« من الإنصاف للحقيقة والتاريخ أن أقول بهذه المناسبة : إن الذى ألف كتابى (سفينة النحاة) و (سفينة البلغاء) هو الشيخ سيد الشايب ، وإن الذى حرر كتاب (بحر الآداب) فى أجزائه الخمسة ، ووضع نثره ونظمه فى هذا الأسلوب الأخير هو الشيخ أحمد حسن الزيات ، وكان الرجلان مدرسين فى كلية الفرير . »

وفى سنة ١٩١٤ انتقل الأستاذ الزيات للتدريس فى المدرسة الإعدادية الثانوية بالظاهر (٢) . وظل مدرساً بها حتى سنة ١٩٢٢ ، وهو يقول فى وصف هذه المرحلة من حياته : (٣)

كنا فى ذلك الوقت « نحمل فيمن حملوا أمانة التعليم فى المدرسة الإعدادية الثانوية التى أسسها فى حى الظاهر من القاهرة المغفور له الشيخ عبد العزيز جاويش ليصلح بها ما أفسد الاحتلال الانجليزى من مناهج التعليم ونظمه ... (وكان معنا فى هذه المدرسة) أحمد زكى ، والكردانى ، والعبادى ، والغمراوى ، وخلاف ، وبدران ، وكامل سليم ، وكانوا بعد ذلك من أساطين النهضة الحديثة فى وزارة المعارف والجامعة » . ولو شاء لأضاف : ومجمع اللغة العربية .

واستمر يقول : (٤)

« ثم توثقت الألفة بيننا جميعاً ... فأنشأنا لجنة التأليف والترجمة والنشر ...

---

(١) وحى الرسالة ج ٢ ص ٣٧٥ هامش (٢) — طبعة سنة ١٩٦٣ .

(٢) جدير بالملاحظة أن كلمة « الإعدادية » لم تكن فى ذلك التاريخ تعنى المرحلة التعليمية التى تدل عليها الآن ، أى المرحلة التى بين المرحلتين الابتدائية والثانوية .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٣ ص ١١٥ .

(٤) المصدر السابق .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

لسد العوز فى كتب التعليم الثانوى ، وغذينا بوقود الروح ثورة السنة التاسعة عشرة فى المدرسة الإعدادية ... وكان عملى ... أن أشارك من بعيد فى تحرير المنشورات الثورية التى كانت توزع سراً فى أنحاء القطر » .

وفى عام ١٩٢٢ اختارته الجامعة الأمريكية رئيساً للقسم العربى بها . وفى نفس العام التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة ، فأمضى عامين بها هنا ، وأمضى العام الثالث بباريس حيث أدى امتحان الليسانس(١) .

وفى سنة ١٩٢٩ سافر إلى العراق لثلاث سنوات ، أستاذاً للآداب العربية بدار المعلمين العليا ببغداد(٢) . وهذه السنوات الثلاث من أخصب حياة الفقيد ، يذكرها له العراق الشقيق بالتقدير والإجلال . وقد كتب عن هذه الحقبة كتاباً سماه « العراق كما عرفته » . ومن دواعى الحسرة أننا لا نعرف عن هذا الكتاب إلا ما كتبه عنه مؤلفه إذ يقول(٣) .

« قضيت ثلاث سنين فى تأليف (العراق كما رأيته) . جمعت مادته من الآثار والأسفار والأساطير والكتب والمناظر والأحاديث ، فى سنتين ، ثم حررته وأنشأته ببغداد فى سنة » . وكان قد طلب الاطلاع عليه زعيم عراقى ، هو ياسين الهاشمى باشا ، وبعد الاطلاع عليه أعاده إلى المؤلف وقال له : « لعل من الخير لنا ولك أن تؤخر نشر القسم السياسى منه إلى حين . أما قسماه الأدبى والاجتماعى فستكثر حولهما الأحاديث ، ولكنهما فى الأدب والنقد والتاريخ نصر وفتح » .

ويقول الأستاذ الزيات : « نزلت على رأى الصديق العظيم ، وعدت بالمخطوط الغالى إلى موضعه من المكتب . ثم أعلنت أنى سأنشر بعض صوره الأدبية فى (الرسالة) . وقد نشرت بالفعل منه صورتين أو ثلاثاً رنت بها الآذان ، وأصغت إليها الأفئدة .

---

(١) انظر وحى الرسالة ج ١ ص ٤٤٨ — ٤٥١ ، الطبعة السابعة .

(٢) أطلعنى الدكتور علاء الزيات ، نجل الفقيد ، على العقد الذى أبرمته معه الحكومة العراقية ، وهو يشتمل على شروط تدل على تقديرها لعلمه ومنزلته .

(٣) « من مذكراتى اليومية » — ١٥ يناير ١٩٤٠ — وحى الرسالة ج ٢ ص ١٣٦ — ١٣٨ ، الطبعة الخامسة .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

« ولكن وا أسفاه ! ... لم يبق من الكتاب العزيز سطر يشعب فؤادى بذكرى العراق . . . مشى للكتاب القدر المحتوم فى ركام من الورق المتروك ، فذهب خلسة إلى النار المبيدة .

« ذلك أنى أخـذت ذلك الكتاب ذات يوم من درج المكتب لأختار منه فصلا للرسالة . ثم جلست فى البهو على كنبة بعثرت فوقها وأمامها تجارب المجلة وأصول المقاولات . فاخترت من المخطوط قطعة أدبية ، ثم ألقيته إلى جانبى ، وأخـذت أصحح (الملازم) وأطرح (الأصول) أرضاً ، حتى فرغت من ملزمتين ، فدفعتهما إلى غلام المطبعة . وخرجت من البهو ، لا فى يدى ولا فى جيبى ، لأترك هـذا الورق المهمل لخادم البيت تكنسه من هنـا ومن هنا ، ثم تطرحه على عادتها كل يوم فى صندوق الكناسة ، ويأتى الزبال فيأخذ ماتجمع فى الصندوق ويحمله على عادته كل يوم فى زنبيله إلى المستوقد !

« وهكذا قضى الله أن تذهب إلى العدم خلاصة العمر وعصارة الفكر ، فى فترة ضائعة من فترات الغفلة ! »

ولهذه الفجيعة الأدبية نظير فيما حدث ، فى القرن الماضى ، لكتاب « تاريخ الثورة الفرنسية » الذى كان قد كتبه الكاتب الإنجليزى توماس كارليل . فقد أعاد مخطوطة الجزء الأول من الكتاب لصديقه ج . ستيورات مل ليقرأها قبل تقديمها للطبع . وأكب الصديق على قراءة المخطوطة ، وتركها ذات ليلة على كرسى فى مكتبته . وفى الصباح هبت الخادمة لتوقد المدفأة ، استعداداً لنزول الأستاذ للحجرة الدفيئة ، فوجدت أمامها مجموعة من الأوراق التى بدت لها أنها مهملة ، فاستخدمتها فى إشعال المدفأة . وقد أصيب كل من الصديق والمؤلف بذهول الفاجعة . على أن كارليل ، بعد فترة من الاكتئاب راض نفسه على العودة إلى الكتابة ، فأخرج « تاريخ الثورة الفرنسية » مرة أخرى ، فى أجزائه الثلاثة التى ما زالت من روائع الوصف التاريخى الأدبى فى اللغة الإنجليزية(١) .

وعنـدما عاد المرحوم الزيات من العراق فكر فى إصـدار « الرسالة » .

---

(١) انظر تاريخ حياة توماس كارليل فى دائرة المعارف البريطانية .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
معهد البحوث والدراسات العربية

وهو يحدثنا عن هذا فى العدد المتمم للألف من أعداد المجلة إذ يقول :(١)

« فى ذات عشية من عشايا نوفمبر من عام ١٩٣٣ زرت أخى الدكتور طه حسين فى دارته بالزمالك ، وكنت منذ أربعة أشهر قد رجعت من العراق بعدما أغلقت دار المعلمين العليا ببغداد ، وكان هو قد أنزل عن كرسيه فى كلية الآداب من جامعة فؤاد .

« فقلت له بعد حديث شهى من أحاديث الذكرى والأمل : ما رأيك فى أن نصدر معاً مجلة أسبوعية للأدب الرفيع ؟ فضحك ضحكته التى تبتدىء بابتسامة عريضة ، ثم تنتهى بقهقهة طويلة ، وقال : وهل تظنك واجداً لمجلة الأدب الرفيع قراء فى مجتمع ثقافة خاصته أوربية ، وعقلية عامته أمية ، والمذبذبون بين ذلك لا يقرءون — إذا قرءوا — إلا المقالة الخفيفة ، والقصة الخليعة ، والنكتة المضحكة ؟

« فقلت له : لعل من بين هؤلاء وهؤلاء طبقة وسطاء تطلب الجد فلا تجده ، وتشتهى النافع فلا تناله .

« فقال وهو يهز رأسه ويمط شفتيه : حتى هذه الطبقة ، إن كانت ، ستقبل على الجد النافع أول الأمر ، لأنه تغيير وتنويع ، فإذا ما ألح عليها لا تلبث أن تسأمه وتزهد فيه . والمثل أمامك فى (السياسة الأسبوعية) .

« فقلت له : ربما كان لإقبال القراء على (السياسة الأسبوعية) ولإدبارهم عنها سببان آخران غير التغيير والسأم : كانت هذه المجلة أول ما صدرت قوية غنية خصبة فأصبحت حاجة ، ثم اعتراها ما يعترى الكائن الحى من الوهن والانحلال فصارت فضلة .

« فقال لى ، بعد نقاش طويل ، أنت وشأنك ! أما شأنى فهو المقال الذى أكتبه ، والرأى الذى أراه .

---

(١) وحى الرسالة ج ٤ ص ٧٢ — ٧٤ ، الطبعة الأولى .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

« وكان يظاهرنى على تفاؤلى أصدقائى الأدنون من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فكانوا بهذه المظاهرة نقطة الارتكاز ومبعث المدد . »

ويصف الزيات « الرسالة » ، وقد بلغت من عمرها ألف عدد ، فيقول ما قاله فيها كل من قرءوها وعرفوها : (١)

« صادفت خلاء فشغلته ، وخللا فسدته ، وعبثا فحاولت أن تصد عنه بإيقاظ النخوة فى الرءوس ، والكرامة فى النفوس ، والرجولة فى النشء . . . ثم سفرت بين الأدباء فى كل قطر من أقطار العروبة . . . ثم قادت كتائب الفكر والبيان فى ميادين الإصلاح الأدبى والاجتماعى والسياسى على نهج واضح من الدين والخلق ... ولو كانت (الرسالة) اليوم بسبيل أن تكشف عن قلبها ، وأن تتحدث بنعمة ربها ، لذكرت فيما تذكر بلاءها العظيم فى إنهاض الأدب ، وتوحيد العرب ، وتخريج طبقة من الأدباء ، وتثقيف أمة من القراء ، بله مجاهدتها السلطان الباغى ، والثراء الطاغى ، والفقر المهلك » .

ونحن إذا أردنا أدلة على صدق هذا الوصف كان علينا أن نرجع إلى حصيلة عشرين عاماً من الصحافة الأدبية الهادفة . وإذا نحن اقتصرنا على ما كتبه الزيات نفسه وجدنا فيضاً من المقالات التى كتبها فى نصرة الدين ، ودعم اللغة ، ورياضة الأدب ، وزيادة الوحدة العربية ، ومحاربة الإقطاع ، وإنصاف الفلاح ، ومهاجمة الامتيازات الأجنبية ، ونقد الزعامات الزائفة ، والتنديد بالحزبية المفرقة ، والإنذار بخطر اليهود فى فلسطين ، والتبشير بالثورة ، والتنبؤ بالرجل المنتظر لإنقاذ الأمة .

ومن إنصاف الأستاذ الزيات أن أذكر هذه الحادثة التى كتب لى بها صديقى الأستاذ عبد المنعم خلاف ، عندما علم أننى أقوم بهذه الدراسة عن الزيات ورسالته : فقد زار الأستاذ خلاف الأستاذ الزيات فى فبراير سنة ١٩٣٧ ، فذكر له الفقيد أن مقاله الذى كانت « الرسالة » قد نشرته له بعنوان « وحى الدم المتحد » فى عدد الخامس من أكتوبر سنة ١٩٣٦ قد سبب ضجة أثارها يهود

(١) المصدر السابق .

مصر : إذ ذهب زعماؤهم - شيكوريل وهرارى وقطاوى — إلى محافظ القاهرة ، وشكوا إليه أن المقال يهددهم بالقتل والإبادة ، ولاسيما الفقرة التى يقول فيها كاتب المقال : « ثم هبوا أنكم غصبتم فلسطين من العرب ، فما هى ضمانات دوامها لكم وسط هذا البحر العربى الذى يكتنفها من الشمال والجنوب ، والشمال واليمين . . . فأى أمان وقرار وقيمة لبلد فقد أهم عناصر الاستيطان وهو الدوام ! ألا إنها خدعة عبقرية ، أو قل : هى عصا القدر تسوقهم إلى شبكة محبوكة فاغرة ، لتصديق نبوءة النبى العربى الكريم ؛ فقد ورد فى صحيح حديثه مامعناه : « وتقاتلكم يهود فتقاتلونهم ، حتى يقول الحجر : يا مسلم ، ورائى يهودى ، تعال فاقتله » .

قال المرحوم الزيات لصاحب المقال : لقد استدعانى محافظ القاهرة للتحقيق فى نشر هذا المقال ، فقلت له : ما الذى يأخذونه على المقال ؟ قال : تهديدهم بالقتل والإبادة . قلت : إن كاتب المقال لم يهدد اليهود ، وإنما نقل حديثاً نبوياً صحيحاً ، فإن كنتم لا تريدون أن يذكره أحد فارفعوه إذن من صحيح البخارى وغيره من كتب الأحاديث . فلما رأى المحافظ هذا التوضيح المحرج صرف النظر عن التحقيق إلى النصيحة بمراعاة الظروف ، ومنع ما يثير مخاوف الأقلية اليهودية فى مصر .

وكان من نتائج هذا الموقف أن منعت شركة الإعلانات الشرقية ، التى كانت بأيدى اليهود ، نشر الاعلانات التى كانت تنشرها « الرسالة » فى مقابل ١٥٠ جنيهاً . ولما أبدى الأستاذ عبد المنعم خلاف أسفه لهذه الخسارة المادية قال له الزيات : لاعليك ! اكتب كما تشاء فيما يبدو لك فيه وجه الحق العربى ، ولا تحسب حساباً لما عسى أن يصيب « الرسالة » من خسارة مادية من قبل الصهيونيين ، فقد عوضنا الله من فقد إعلاناتهم انتشار « الرسالة » فى فلسطين والأردن وسورية وسائر البلاد العربية عقب هذا المقال ، كما وصلتنا رسائل كثيرة كلها تأييد وحماس .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

ويضيف الأستاذ عبد المنعم خلاف ، فى كتابه لى ، قوله : « ولم يكن هذ الموقف منه موقفاً عارضاً يزول ، بل كان من السمات الثابتة التى لمستها مراراً فى شخصيته وإدارته لرسالته فى مناسبات شتى ، غير المناسبة السابقة ، إذ كان

كثيراً مايبلغنى ، وهو يبتسم ابتساماً صادقاً غير مصطنع ، أن بعض مقالاتى فى مهاجمة فرنسا فى عهد استعمارها لبلاد الشمال الأفريقى العربى ، ولسورية ولبنان ، قد سبب مصادرة أعداد (الرسالة) التى نشر بها . . . وأشهد أنه لم يمنع أى مقال لى من النشر فى (الرسالة) مهما بلغ من عنفه فى مهاجمة أعداء العروبة وأصدقائهم من المصريين . أوسع الله له فى رحمته ، وأجزل مثوبته » .

هكذا كان الزيات : حمية فى الحق ، وحمية من الزلفى ، حتى إنه أعلن صادقاً أن « المصروفات السرية » لم تجد يوماً سبيلها إلى « الرسالة » . يقول فى سبتمبر سنة ١٩٥١ :(١)

« ولعل السر فى بقائها إلى اليوم أنها عفت عن المال الحرام ، فلا تجد لها اسماً فى (المصروفات السرية) ، ولا فعلا فى المهاترات الحزبية ، ولا حرفاً من الإعلانات اليهودية » .

غير أنه لم يمض عامان حتى احتجبت « الرسالة » . وإذا كان قراؤها وكتابها قد جزعوا لذلك أشد الجزع ، وعبروا عن جزعهم هذا فى عديد من المقالات التى نشرت فى الصحف فى مختلف الأقطار العربية ، فإن الزيات قد قابل هذا الاحتجاب بنفس الإباء الذى كان يشعر به و « الرسالة » فى أوجها ، فقد كتب يقول :(٢)

« ولو أرادت (الرسالة) زهرة الحياة الدنيا لعرضت ضميرها للبيع ، وقلمها للإيجار ، ويومئذ تتحول أكداس الورق فى مطبعتها العجيبة من أوراق طبع إلى أوراق نقد . ولكن الله الذى حبب فى سبيله إلى المجاهد الأول الاستشهاد ، وليس فى مزوده إلا حفنة من سويق ، أو قبضة من تمر ، حبب إلى (الرسالة) الجهاد فى الميدان المجدب الموحش ، ولا عدة لها إلا الصدق والصبر والزهد ، لتظفر بنصر المجاهد إذا فاز ، أو بأجر الشهيد إذا قتل ! »

---

(١) وحى الرسالة ج ٤ ص ٧٥ ، الطبعة الأولى .

(٢) وحى الرسالة ج ٤ ص ١٠٣ — ١٠٤ ، الطبعة الأولى .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

وبعد احتجاب « الرسالة » لم يضع الزيات القلم ، بل ظل يكتب فى الصحف ، ثم تولى رياسة التحرير لمجلة « الأزهر » عدة سنوات ، واصل فيها زيادته للأدب ، وعنايته باللغة ، ودعوته للإسلام .

وإذا كانت الأمة العربية قد كرمته فى جميع أقطارها ، وأحلت كتبه وكتاباته محل الأستاذية الأدبية ، فإن الدولة قد عرفت له قدره ، فكرمته بجائزة الدولة سنة ١٩٥٣ عن كتابه « وحى الرسالة » . ولما عدل قانون جوائز الدولة فى عهد الثورة ، وأصبحت جائزة الدولة تقديرية ، لا عن كتاب ، أو عمل من الأعمال ، بل صارت تتويجاً لحياة كاملة ، كرمته الدولة مرة أخرى فمنحته سنة ١٩٦٢ الجائزة التقديرية فى الأدب ، كما اختارته عضواً فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

وقد قال يوم تسلم هذه الجائزة التقديرية من السيد الرئيس جمال عبد الناصر : (١)

« إن الأدب الذى تكرمه الليلة فى أهله قد بشر بك ، ومهد لك ، ودعا إليك . ففى أغسطس من عام ١٩٣٥ قالت مجلة (الرسالة) :

« نحن فى مجموع من الناس أوزاع وأتباع ، ننظر إلى الأمم تعمل ، وإلى العالم يسير ، بعين بلهاء لا يجاوز بصرها مدى العجب ، وعلتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول ، لا من رجال الفعل ، ومن أرباب القلم ، لا من أرباب السيف » ...

« وفى إبريل من سنة ١٩٤٠ تنبأت (الرسالة) بالرجل المنتظر فقالت ما نصه : إن للرجل الذى تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له وتدل عليه . فمن الآيات المهيئة لظهوره انحلال الأخلاق فلا تتماسك فى قول ولا فعل ، وتقاطع القلوب فلا تتواصل فى وطن ولا دين ، واستئثار النفوس فلا تتعفف فى صداقة ولا نسب ، وجموح الشهوات فلا تنقدع بلين ولا شدة .

« ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه ، ولأمته قبل أسرته ،

(١) الخطبة كلها فى كتاب « فى ضوء الرسالة » ص ٣٣١ — ٣٣٤ .

ولإنسانيته بعد وطنيته . ومصداق تلك الآيات أن تموت (الأنا) فى لسانه وتحيا فى ضميره ، ويتحد فى ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه ، فهو يحس ألمه لأنه مجتمع شعوره ، ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله ، ويملك قيادته لأنه مظهر إرادته . وهو فى سمو نفسه ، ونزاهة هواه ، قد ارتفع عن أوزار الناس ، وأقذار الأرض فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابى لأن فضله أرفع من العصبية ، ولا يقول قولا ولا يعمل عملا إلا إذا وافق الدين الذى يعتقده ، والمبدأ الذى يؤيده ، والشعب الذى يقوده ...

« اللهم إنا نسألك الراعى الذى يطرد الذئب ، والخيط الذى يجمع الحب ، والدليل الذى يحمل المصباح ، والقائد الذى يرفع العلم ، والأستاذ الذى يعلمنا أن نصنع الإبرة والمدفع ، ونشق المنجم والحقل ، ونوفق بين الدين والدنيا ، ونوحد بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة ...

« ذلك ؛ يا سيدى الرئيس ، ما تنبأت به (الرسالة) قبل قيام ثورتك المباركة باثنتى عشرة سنة . وقد صدقت النبوءة ، واستجيب الدعاء ، فهل كانت تنظر إليك بلحظ الغيب ؟ »

وللمرحوم الزيات نبوءات كثيرة تحقق بعضها فى حياته ، وسيتحقق باقيها فى ظل ذكراه إن شاء الله .

لقد كتب فى الثالث والعشرين من يولية سنة ١٩٥١ ، أى قبل قيام الثورة بسنة مضبوطة ، بعنوان « متى يغضب الفلاح » ؟ يقول : (١) .

« فما دام الفلاح ، وهو سواد الشعب ، معدوداً فى دود الأرض ، يزرع ليأكل ، ويحفر لينام ، ولا يهمه إن ظلم حكامه أو عدلوا ، وجد زعماؤه أو هزلوا ، وسواء عليه أخرج المحتلون أم بقوا ، وسعد مواطنوه أم شقوا ، فهيهات أن يكون لنا رأى عام ، وحكم صالح ، ودستور صحيح ، ووطن مستقل!

(١) وحى الرسالة ج ٤ ص ٣٧ ، الطبعة الأولى .

ومتى استنار ما أظلم من نفسه ، واستيقظ ماغفا من حسه ، أدرك أنه مصدر السلطة ، ومورد الثروة ، وعماد الأمة ، فلا يقبل أن يهمله حاكم ، أو يستغله ظالم ، أو يتغفله زعيم. ولكن ليت شعرى بأى طبل يسمع ، وبأى بوق يفيق»!

وفى نفس التاريخ بعد عام بالضبط قام عبد الناصر فأسمع ذلك الفلاح ، وأيقظه ؛ ومنحه — أستغفر الله — بل مكنه أن يسترد حقوقه .

وهذه نبوءة أخرى له كتبها فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٥١ ، فتحققت قبل مضى عام عليها :(١)

« هبى يارياح الخريف هبى ! هبى واحطمى هذه الأشجار الغلاظ التى تأكل خير الأرض ، وتحجب نور السماء ، وتقطع سبيل الناس ، ولا تحمل إلا شوكاً من غير ثمر ، وخشباً من غير نفع ، وخضرة من غير جمال .

« هبى يا رياح الخريف هبى ! ... هبى واهدمى هذه الأوكار القباح التى اتخذت أشكال القصور ، وانتحلت أسماء الأندية ، فباض فيها الشر باسم السياسة ، وفرخ فيها الفجر باسم الرياضة ، وأدت إليها أبابيل من البوم التى تعلن الخراب ، والخفافيش التى تمج الظلام ، والغربان التى تذيع الفرقة ، فلا نرى فيها ولا نسمع منها إلا خمراً تعربد ، وقماراً يصطرع ، وترفاً يفسق ، وسرفاً يدمر ! ...

هبى يا رياح الخريف هبى ! ... واقلعى ذلك النبات الدنىء الذى يتطفل على أشجار الوادى ، فيتغذى على أصولها ، ويتسلق على فروعها ؛ حتى إذا أدرك الهواء والضياء والرفعة ، التف بعساليجه وكلاليبه على أعاليها التفاف الأفعوان ، فيكظم أنفاسها فلا تنسم ، ويشل حركتها فلا تميس ، ثم يقول مشيراً بأطرافه الرخوة إلى كل عابر : انظر ! ألست أنا الأمير ، وهذا الشجر هو الفلاح ؟ وإذا لم يسخر الله لى الشجر فكيف أنمو ؟ وإذا لم يسخر الفلاح للأمير فكيف يسمو ؟ ...

(١) وحى الرسالة ج ٤ ص ٤٤ — ٤٥ ، الطبعة الأولى .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

« هبى يارياح الخـريف هبى ! ... هبى واعصفى بما ذكرت وما لم أذكر من زبد يقول إنه زبد ، وسراب يزعم أنه شراب ، وحطام مختلف من بقايا الشعوب والخطوب والعقائد والحضارات والأساطير يدعى أنه أمة ! ...

« إنها الريح التى تصحبها الروح ، والرجفة التى يتلوها البعث ، والقرة التى يعقبها الربيع » !

ولا أطيل فى سرد نبوءات الزيات، ولكن هذه النبوءة التى أختتم بها ما اخترته من نبوءاته ستصدق بإذن الله، وإن كان قد أعلنها منذ أكثر من عشرين عاماً(١) .

« والجيش قد ينهزم لأنه عتاد وعدد ... والشعب لا ينهزم لأنه روح ومدد. وإذا دخل اللص منصوراً وراء الجيش، فانه سيخرج مدحوراً أمام الشعب » .

إن النبوءات أشعة العبقرية ، وإن للعبقرية الطاهرة لمحات هى إلهام لها من الله تعالى ، لتضيىء بها السبيل أمام الناس فى أوقات محنتهم ، وهذا هو الذى وصفه الزيات بقوله :

« ومزية الكاتب الموهوب أن يرينا ما لم نر ، ويقفنا على ما لم نعلم ، ويصور لنا ما لم نتصور » .

وفى رأيى أن هذه المزية لا تتحقق إلا فى جو من الهدوء والاتزان والإخلاص والرياضة النفسية التى تبلغ درجة من التصوف الروحى . والمتتبع لحياة الزيات يصدقه حين يقول عن نفسه :(٢) .

« مذهبى فى الحياة يتميز بالاستقامة والوضوح ... نهج لى هذا المذهب وألزمنى إياه طبع حر مسالم ، فأنا منذ حملت نصيبى من عبء الحياة أحاول أن أستقل فى عملى عن إرادة الغير ،وأستغنى بقدرتى عن معونة الناس ،ولم أضع يدى ولا عنقى فى أغلال الوظائف الحكومية ، ولم أصعد صعود العليق على أكتاف

---

(١) وحى الرسالة ج ٣ ص ٢٢٩ ، الطبعة الثالثة .

(٢) وحى الرسالة ج ٤ ص ١١٦ — ١١٧ ، الطبعة الأولى .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

الطوال من ذوى السلطان والحكم ، وإنما اضطربت فى مجالى الحيوى طليقاً من كل قيد إلا قيد الخلق ، مستقلا عن كل عون إلا عون الله ...

« من مذهبى أن أدع الخلق للخالق ، فلا أنتقد ولا أعترض ، ولا أمد عينى وراء الحجب ، ولا أرهف أذنى خلف الجدر ، ولا أدس أنفى بين الوجوه ... لذلك عشت لين الجانب ، سليم الصدر ، لا أدخل فى جدل ، ولا أشارك فى مراء ، ولا ألج فى منافسة . وكان من جدوى ذلك على أن الله وقانى عذاب الحسد ، وكفانى شر العداوة ؛ وجعل ما بينى وبين الناس قائماً على المجاملة والمساهلة والود » .

ومن وصفه الصادق الذى ينطبق عليه ، كما عرفناه قوله(١) :

« الحق الذى يؤيده الحس أن الرجل كلما اكتمل عقله ، وتهذب طبعه ، ولطف شعوره ، كان أغرب عن الجلبة ، وأزهد فى العنف ، فتراه إذا تكلم كسر من صوته ، وإذا ضحك افتر عن ثغره ، وإذا استمع أرهف من سمعه ، وإذا قال ألان من قوله ، وإذا مزح عف فى مزحه » .

على أن المرحوم الزيات لم يستطع أن يبقى طول حياته بمنأى عن الخصومة . ولكنه كان يمتاز عن غيره فى خصوماته بميزتين : إحداهما قلة المعارك التى خاضها ، بل ندرتها ، والأخرى أنه كان يدفع إليها دفعاً ، فإذا خاضها كان فى الأغلب الأعم مدافعاً لا مهاجماً ، ومصلحاً لا مراغماً .

لقد قال فى تبرير ما اشتبك فيه من المعارك(٢) :

« أنا أوثر أن تجرى حياتى جريان الجدول الهادىء المنساب ، لا يعترضه شلال فيهدر ، ولا يصده صخر فيلتوى . لذلك كانت الخصومات الأدبية تنشب الحين بعد الحين فى (الرسالة) وغير (الرسالة) بين الكتاب ، فلا أشترك فيها بلسان ولا قلم .

---

(١) وحى الرسالة ج ٤ ص ٣٥ ، الطبعة الأولى .

(٢) وحى الرسالة ج ٤ ص ١٢٠ .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
معهد البحوث والدراسات العربية

« ولكن من الخصومات ما يكون فيها معنى الشيوع ، إذا تعلقت بقدس من الأقداس المشتركة ، كالوطن أو الدين أو اللغة ، فتشعر أنك خصم فيها وإن لم تكن ، وأنك مدفوع إليها وإن لم ترد » .

وحين دخل الزيات معمان المعارك الأدبية رأيناه فى أكثرها يترفق ، وفى أقلها يترنق . وإن سماحته وسعة أفقه التى تجلت فى كل ما كتب تتمثل فى عبارته الرائعة التى ينبغى أن تكون دستوراً للأدباء والفنانين : (١)

« إن كلمة الخير من أديب فى أديب ، أو شهادة الحق من عالم فى عالم ، لم يسجلها تاريخ الأدب إلا فى النوادر ! ... لا أدرى لماذا يظن الكاتب أو الشاعر أو الفنان أن الأرض لا تتسع إلا له ، وأن الناس لا يقبلون إلا منه ، وهو يعلم علم اليقين أن الأدب ألوان وطعوم ، وأن الذوق أشتات ودرجات ، وأن مثل الأدباء والفنانين فى العصر الواحد ، والبلد الواحد ، كمثل الجوقة الموسيقية ، تؤلف بأصواتها المتنوعة ، وصورها المتعددة ، لحناً واحداً يطرب النفوس المختلفة ، ويرضى الأذواق المتباينة . ونجد مع هذه الوحدة ، وذلك الانسجام لكل عازف مكاناً ، ولكل صوت آذاناً ، ولكل قطعة فناً ، فلا تغنى آلة عن آلة ، ولا يجزى صوت عن صوت » .

ومن نماذج ترفقه فى أسلوبه الذى يخوض به معاركه الأدبية ما كتبه فى (الرسالة) فى ٩ يوليه سنة ١٩٣٦ بعنوان « بين أسلوبين » فى رده على مقال كان الدكتور طه حسين قد نشره فى جريدة (الوادى) . جاء فى رد المرحوم الزيات : (٢)

« أما بعد ، فإذا جاز لهبة الريح أن تزعزع الجبل ، أو لحبة الرمل أن تكدر البحر ، جاز لنشر مقال أدبى من غير إذن أن ينال من صداقة رفيق الصبا ، وخدينى الشباب ، فينتزع المحبة من خلال النفس ، ويقتلع العلاقة من صميم

---

(١) وحى الرسالة ج ٣ ص ٢٦٨ ، الطبعة الثالثة .

(٢) عن وحى الرسالة ج ١ ص ٣١٣ — ٣١٤ ، الطبعة السابعة .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

القلب ، ويقتطع الماضى من حساب الزمن ، بالسهولة التى تنشر بها كلمة فى صحيفة .

« وما كان ليقع فى الوهم أن قلبين ألفت بينهما براءة النشأة ، وطول الصحبة ، ووحدة الهوى ، وطبيعة الثقافة ، يجرى بينهما من سوء التفاهم ما يجرى بين القلوب المتناكرة ، والصلات الحديثة .

« كذلك ما كان ليسبق إلى الظن أن صديقى الذى لم تكشف الحوادث والأيام منه إلا شعوراً سليماً ، وخلقاً كريماً ، وذكاء متقداً ، وضميراً يقظاً ، ونفساً طيبة ، يخضع لأثر الحر ، وثقل العمل ، وعنت الظروف ، فيقول فى صديقه ما لايحب ، ويرميه بما لا يعتقد .

« أخى طه ! إن بينى وبينك ماضياً جليلا لا تمحوه طوارىء الحاضر الحقير ، وصداقة خالصة لا تكدرها شوائب الظن السوء ، وذمة وثيقة لا تخفرها بوادر الكلام السريع ، وإخوة كراماً جزعوا لهذا الخلاف ، ويسرهم أن ينقضى .

« وإذا أمكنك أن تجد فى ذاكرتك القوية غميزة فى خلق أخيك على طول عهدك به ، كنت خليقاً أن تطيع فيه نوازى الغضب ، وتقبل عليه شواهد الظن ، وتسلكه فى ذوى الخلق المعوج والطبع اللئيم .

« أما إذا كان من طبيعة الصحافة أن تعبث بكل ما بقى بيننا وهو الود ، وتعتدى على كل مابقى لنا وهو الخلق ، وتمتد إلى رأس مالنا الوحيد وهو الشرف ، فادع الله لى ولك أن يخرجنا منها ، وأن يغنينا عنها ، وأن يحفظ البقية من عمرنا الكادح فى كنف رعايته وفضله » .

بمثل هذا الترفق استطاع الزيات أن يبقى على صداقة أخيه فامتد حبل الود بينهما بعد ذلك ثلث قرن من الزمان .

كدت أشغل بأسلوب الزيات فى الحياة عن أسلوبه فى الكتابة ، مع أن الزيات قد عرف بأنه صاحب أسلوب ، وصاحب مدرسة فى الأسلوب .

وأرانى ، وقد عرضت وفيراً مما كتب ، فى غير حاجة لأن أدفع عنه التهمة الباطلة التى تقول إنه يعنى باللفظ دون الفكرة . بل إنه ، كما رأينا ، لا يعنى باللفظ أكثر مما يعنى بالفكرة .

كان الزيات رجلا أنيقاً فى حياته ؛ ولكنها لم تكن أناقة جوفاء ، كان أنيقا فى ثيابه ، ولكن كان بين برديه العلم والأدب والسماحة وعزة النفس . وكذلك كان أنيقاً فى اختيار لفظه ، ولكن ليعبر به عن أدق معنى ، وأوضح فكرة . لقد كتب موضحاً ذلك فى كتابه « دفاع عن البلاغة » وفى عديد من مقالاته فى « الرسالة » وما أحسبه كان يدفع بذلك عن نفسه ، بقدر ما كان يلبى ما فى طبيعة الأستاذ فيه أن يعلم الأدباء الناشئين شرف اللفظ الذى يكسو شرف المعنى وكرامة الكلمة التى تطهر كرامة الفكرة . أجل ، لم يكن الزيات بحاجة إلى شرح أسلوبه وقد ملأ به آلاف الصفحات . فإن لم يكن بد من أن نشير إلى رأيه فى الأسلوب ، فحسبنا أن نقرأ له قوله فى مقدمة كتابه « فى ضوء الرسالة »(١).

« إن المعنى إذا اتضح فى الذهن اتضح فى اللفظ ، ولا يكون الغموض أو التعقيد إلا حيث تنبهم الفكرة ، وتختلط الصورة ، والانبهام والاختلاط لا يصيبان الكاتب أو الشاعر إلا إذا فقد الضوء وضل الطريق » .

أو قوله فى كتابه « دفاع عن البلاغة »(٢) :

« من رجال الأدب من يرى أن العلاقة بين المعنى واللفظ كالعلاقة بين الجسم والثوب ، لكل منهما على تلازمهما وجود ذاتى مستقل ، له أوصافه وخصائصه ؛ فالجسم يقوم بحسب الخلقة ، والثوب يقوم بحساب الصناعة . ومنهم من يرى أن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الروح والجسد ، لا يوجد هذا بغير ذاك ، فإذا انفك أحدهما عن الآخر مات الحى ، وفسد الكائن . ونحن — كما علمت من قبل — على رأى هذا الفريق ، فقد قلنا فى كلمة سبقت : إن الأسلوب هو الهندسة الروحية لملكة البلاغة ، وإن البلاغة التى نعنيها هى البلاغة

---

(١) صفحة ج ، الطبعة الأولى .

(٢) صفحة ٥٩ — ٦٠ طبعة ١٩٤٥ .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
معهد البحوث والدراسات العربية
عضو اتحاد الجامعات العربية

التى لا تفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين الموضوع والشكل : إذ الكلام كائن حى ، روحه المعنى ، وجسمه اللفظ ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لا يتمثل ، والجسم جماداً لا يحس » .

وبعد فإنى لم أنس مساهمة الزيات فى أدب الرواية ، ولا ريادته للأقصوصة كتابة وفناً ونشراً فى مجلته « الرواية » صنو « الرسالة » التى استقلت عنها حقبة ثم انضمت تحت جناحها .

ولم أنس « الرسالة » الثانية التى ردت لهفة الأدب والأدباء بين سنتى ١٩٦٣ و١٩٦٥ .

ولم أنس آراءه فى النقد ، وموقفه من الشعر الحديث ، ومعارضته للشعر المسمى بالحر ، وحربه على العامية ، وتقييمه لأدب الجنس . ولم أنس دفاعه عن المرأة ، ولم أنس لهيب قلمه الذى سلطه على المحتلين وعملائهم .

ولم أنس بحوث الزيات فى هذا المجمع الموقر ، وهى فى مجلدات مجلته مراجع علمية وثيقة .

ولم أنس أن المجمع حين أعلن فى العام الماضى عن جائزته الأدبية للتأريخ لمجلة ذات أثر فى الثقافة العربية ، لم يفز فيها إلا كاتب نابه أرخ لرسالة الزيات هو الأستاذ محمد سيد محمد .

ولم أنس الزيات فى لجان المجمع بسمته الوقور ، ولفظه المقتصد ، ورأيه الصائب . لم أنس ذلك فى لجنة الأدب التى كان لى شرف العمل معه فيها ، ولا فى لجنة المعجم الوسيط الذى كان أحد المضطلعين باخراج طبعته الأولى ، ومقرر اللجنة التى تراجع طبعته الثانية التى واصل العمل فيها حتى اليوم السابق لوفاته .

ولم أنس جهده فى لجنة المعجم الكبير ، وما أسداه إليها من علم وخبرة .

لم أنس شيئاً من ذلك ، ولكن الحديث عن كل ذلك ، وعن غيره ، مما لم أنسه وإن لم أشر إليه ، يحتاج إلى مجلد ضخم يسمى « من أدب الزيات » .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

ولكنى لابد أن أشير مجرد إشارة إلى مؤلفاته التى ستبقى معالم فى طريق الثقافة الأدبية :

فكتابه فى تاريخ الأدب العربى قد طبع إحدى وعشرين طبعة . وكتابه فى أصول الأدب طبع أربع مرات .

ووحى الرسالة فى أجزائه الأربعة طبع عدة مرات . وله كذلك « فى ضوء الرسالة » و « دفاع عن البلاغة » . ومن مترجماته « آلام فرتر » وقد طبعت ثمانى طبعات و « روفائيل » وقد طبعت تسع طبعات .

وقد أشرت إلى كتابه المفقود « العراق كما رأيته » . وهناك كتابان أشار إليهما الفقيد فى مقدمة كتابه « فى ضوء الرسالة » وسماهما ، إذ قال : (١)

« ... فأخلدت قليلا إلى الراحة ، ثم عدت إلى الكتابة فى مجلة الأزهر وبعض الصحف ، زيادة على عملى فى المجمع اللغوى ، وأخذت أهيىء الأسباب لظهور كتابين أرجو أن يساعدنى الله على إخراجهما ، وهما (ذكرى عهود) و(عبقرية الإسلام) . وسيكون هذان الكتابان ، كما أرجو ، خير ختام لحياتى الأدبية » .

وقد سألت عنهما الدكتور علاء ، نجل الفقيد ، فأخبرنى أنه لم يعثر على مخطوطات لهما بين أوراق والده ، وأنه سأل الناشرين الذين كانوا ينشرون للمرحوم الزيات فقال إنهم لم يتسلموا لهما أصولا . على أن صديقى الأستاذ عبد العزيز الدسوقى ، عضو لجنة النشر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، أخبرنى أنه — فى حديث صحفى مع الفقيد لمجلة « الهدف » فى سنة ١٩٦٠ — حدثه عن هذين الكتابين ، وأحضر له من مكتبته مخطوطة كتاب (ذكرى عهود) ، وأطلعه على ما يشبه أن يكون مقدمة لكتاب (عبقرية الإسلام) .

وفى كل ما قرأته للزيات — وأنا فى سبيل هذه الكلمة ألقيها اليوم قد استكملت ما لم أكن قرأته له من قبل — استرعانى أمران أود تسجيلهما . أولهما

---

(١) فى ضوء الرسالة صفحة ع : الطبعة الأولى .

موقف له حيزنى بعض الحيرة ، فترددت فى أن أسميه تطرفاً ، واستحييت أن أسميه تناقضاً ، وانتهيت إلى تسميته تسامحاً .

ذلك أن هذا العبقرى ، الحنى باللغة ، الذى يبلغ الذروة فى أسلوبه ، ويستوى معتدلا فى تصرفاته ، يتطرف فى اختيار ألفاظه فى اتجاهين متضادين : فيبلغ به التأنق مبلغ أرفع الأساليب فى انتقاء اللفظ المتخصص للمعنى الذى يريده ، ولو كان غريباً على قراء عصره ، ومعظم قراء رسالته ، حتى إنه كان يضطر أحياناً لشرحه فى حواشى الصفحات . ثم هو فى الوقت نفسه تتسع به سماحته فيستعمل عديداً وفيراً من الألفاظ العامية والدخيلة التى تجرى على الألسنة فى الحديث العادى ؛ وأحياناً يفصلها بين قوسين ، وأحياناً أخرى يخلى بينها وبين جواهر ألفاظه . فهو يتكلم عن الزوجة الفارك ، وجواز القلوب ، والكباحة (يقصد الفرملة) ، وأحلاس القهوة ، ويقول مثلا : « فإذا حثر ذوق العربية فى رجاله بما قمش السكاكى والفنرى ... » ويفسر ذلك بقوله : حثر اللسان : لم يجد طعم الطعام ، وقمش الشىء : جمعه من هنا وههنا .

وتزغمت تحفظات الإنجليز (تكلمت فى غضب) .

والبنيقة (الياقة) .

والتدريم (Manicuse) .

والفنزنج (رقص الباليه) .

ويأبى إلا أن نسمى عيد الميلاد المسيحى بالنيروز .

وإلى جانب ذلك نجده يستخدم ألفاظ المكرفون ، والتلسكوب ، والكابين ، والكازينو (وفى نفس المقال يذكر « المقصف ») ، والجدعان ، والكشك ، والكرنيش ، والورشة (ويذكر إلى جانبها « المفن » قاصداً الأستيوديو) ، والراديو ، والفترينات ، والصالة ، والصالون ، والورنيش ، والكنبة (ويعلق على استعمال هذه الكلمة فى « آلام فرتر » قائلا : آثرنا هذه الكلمة الأعجمية على الأريكة والصفة والمسورة ، لأنها أدق فى الدلالة على معناها ، ولا تخرج عن الأوزان العربية) .

وليس لدى ما أفسر به هذه الظاهرة إلا ماكتبه الفقيد ونادى به فى المجمع من تقريب العامية من العربية(١) .

والأمر الثانى الذى استرعى نظرى أن هذا الكاتب ؛ الذى اتصل بالأدب الفرنسى اتصالا كبيراً، فترجم عنه قصتين من روائعه ، كما نقل عنه عدداً كبيراً من بحوثه وقصصه القصيرة ، وقال عن صلته بهـذا الأدب : « الأدب العالمى الذى تأثرت به بعد الأدب العربى هو الأدب الفرنسى ، وذلك لأسباب أهمهـا أن اللغة الفرنسية هى لغتى الثانية : فمن الطبيعى أن أقرأ بها وأن أبدأ بأدبها ... » — أن هذا الكاتب — وهذه صلته بالأدب الفرنسى — لم أجد فى كتاباته أثراً من الأساليب الأجنبية ، حتى فيما نسميه « تعريب الأساليب » ، فقد كانت ديباجته العربية ناصعة لاتشوبها عجمة ولو كانت طلية النسج ، سائغة الجرس . وحسبى أن أعد له تعبيراً واحداً عثرت عليـه مرتين أو ثلاث مرات هو تعبير « رأساً إلى رأس » الذى هو من غير شك ترجمة حرفية للتعبير الفرنسى (tete-à-tete)(٢) .

وقد أضيف إلى هذا ماجارى فيه الزيات الاستعمال الأوربى فى تقديم الغائب على ضمير التكلم فى قوله : طه وأنا . وليس لى ما أعلق به على هذا إلا أنه شهادة رفيعة للزيات الذى حصنته ثقافته العربية الأصيلة ، فى عمقهـا وشمولها ، من أن يجد نفسه فى حاجة إلى استعارة أسلوب أجنبى لأية فكرة كان بصدد التعبير عنها .

إننى كلما هممت باختتام هذه الدراسة شعرت بأن هناك ما لا يزال يحتجزنى إلى جانب أدب الزيات ، وليس من السهـل على من عاشره دهراً ، ثم عكف على أدبه شهراً ، أن ينتزع نفسه قبل أن يشير إلى بعض ما يعـده أروع روائعه .

فله مقالتان أشير إلى إحداهما ، وأقتبس قدراً من الأخرى . فهذه مقالتـه

---

(١) فى ضوء الرسالة ، صفحة (هـ) وص ١٦٦ .

(٢) انظر « فى ضوء الرسـالة » ص ١٢١ ، و« وحى الرسالة » ج ١ ص ٣٨٧ .

« لماذا يقدس المصريون الخبز»(١) ، وهى تذكرنى فى أصالة تفكيرها ، وروعة أسلوبها بعملين أدبيين آخرين : أحدهما قصيدة لموسولينى فى العشرينات من هذا القرن ، إبان نهضته بإيطاليا فى فجر حكمه ، بعنوان « احترموا الرغيف » ، والعمل الآخر هو قصيدة صديقى الشاعر محمود حسن إسماعيل ، فى ديوانه الأول « أغانى الكوخ » بعنوان « سنبلة تغنى » . ولكل من هذه الأعمال الأدبية الثلاثة ميزتها ومنهجها ، ولكنها تلتقى فى احترام « لقمة العيش » ، وهو المعنى الإنسانى الذى توفر الزيات على الإشادة به .

أما خير ما قرأته له ، وما برحت منذ سنين أقتبسه له فهو مقالته « فلاحون وأمراء » ، والتى كتبها سنة ١٩٣٩ ، تحت سيف الإرهاب ، وسحب الطغيان ، مما يمثل أفضل تمثيل صدق العزيمة ، وقوة الإيمان ، وقدسية الكلمة فى القلم الشجاع .

كتب يرد على النبيل (السابق) عمرو إبراهيم ، رئيس نادى الفروسية ، عندما طعن كرامة المصريين مهما علت مراتبهم ، لأنهم « فلاحون » . قال مشيراً إلى أمراء أسرة محمد على :

« ... لا أدرى ما الذى سوغ لهم أن يعتقدوا أن الله خلقهم من المسك للملك ، وخلقنا من الطين للطين ، وجعلهم للثروة والسيادة ، وجعلنا للخدمة والعبادة ! إن كانوا مسلمين فالإسلام قد محا الفروق بين الطبقات إلا البر والتقوى ، فالعرب والعجم سواء ، وقريش وباهلة أكفاء . وإن كانوا وطنيين فالوطن لا يعرف التفاضل بين أبنائه إلا بأثرهم فى تقويته وترقيته وخدمته . فالفلاحون على درجته العليا ، لأنهم عماد ثروته ، وعدة دفاعه ، وقوة سلطانه ؛ والأمراء على درجته السفلى ، لأنهم فيه معنى السرف الذى يفقر ، والترف الذى يوهن ، والبطالة التى تميت » .

« لا ياسيدى النبيل ! ليس المصريون فى الجنسية والوطنية بمنزلة سواء ،

---

(١) فى ضوء الرسالة ص ٣٤ — ٣٧ ، الطبعة الأولى .

(٢) وحى الرسالة ج ٢ ص ٥٣ — ٥٥ ، الطبعة الخامسة .

فإن منهم من تمصر بالقانون لا بالأصالة ، وتوطن للمنفعة لا للعاطفة . وكيف يستوى فى ميزان الوطنيـة من يقف على مصر يده وقلبه وكسبه ودمه ، ومن لا يعرفها إلا معرفة الغرماء ، ولا يعيش فيها إلا أشهر الشتاء ، ولا يعنيه من أمرها إلا خفض أجرة العامل ورفع سعر القطن ! »

وبعد فإننى لا أجد ما أختتم به كلمتى فى تأبين المرحوم الزيات إلا ما قاله هو فى تأبين فقيد مجمعى آخر منذ ست سنين : (١)

« إن المجمعيين كالأنواء فى السماء ؛ كلما سقط نجم منها فى المغرب ، طلع بخياله نجم آخر فى المشرق ، فلا يزال العالم الأدبى منهم فى ضوء مستمر ، وغيث متصل ، ولكن غروب الغارب ينسى شروق الشارق ، ويسلم النفس إلى ليل من الحزن طويل موحش . والناس أمواج فى خضم الحياة ، تتولد من بعيد ، ثم تتعاقب وتتدافع ، فترتفع وتنخفض ، وتضطرب وتصطفق ، وترغى وتزبد ، حتى تبلغ الساحل ، فتنكسر على صخوره ، أو تغيب فى رماله » .

« ونحن الشيوخ نرى بأعيننا الكليلة صخور الشاطىء ، ورمال القفر ، على مدى قريب ، نجد فى أنفسنا الرضا بحلول أصدق المواعيد ، لأنه العاقبة التى لا مفر منها ، والغاية التى لا معدى عنها . وسنة الله فى خلقه أن يشيخ الشاب ، ويهيج الزرع ، ويجىء الأجل ، ويموت الحى ؛ ولكن الإيمان بيقين الموت ، والاطمئنان إلى نهاية الحياة ، لم يستطيعا أن يحبسا فى العين دمعة الحزن ، ولا أن يخففا عن القلب لوعة الفراق » .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

(١) مجلة مجمع اللغة **العربية** ج ١٦ ص ١٢٥ .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية